مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السابع / العـدد الأول
(ذو القعدة 1444هـ/ جوان 2023م)، ص 09– 19

موقف الكنيسة الكاثوليكية من سياسة نابليون الثالث بالجزائر بين(1867 –1870)

The position of the Catholic Church on the policy of Napoleon III in Algeria between 1867-1870

د/ شرف موسى[1]

[1] المركز الجامعي نور البشير، البيض

المؤلف المرسل: د/ شرف موسى CHEREF MOUSSA moussa.youth@gmail.com

تاريخ الارسال: 29 /2022/11 تاريخ القبول: 2023/01/02

الملخص:

تتناول هذه الدراسة السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر خلال فترة حكم نابليون الثالث في الشق المتعلق بمشروع المملكة العربية الذي طرحه نابليون، وكذا الإجراءات والقوانين التي أصدرها تباعا لذلك، من ذلك القانون المشيخي –السيناتوس كانسولت– سنة 1863م، وتبعات ذلك على الدولة الفرنسية ومستعمرة الجزائر وموقف الكنيسة الكاثوليكية المعارض لهذا المشروع الذي اعتبرته تنازلا مفضوحا من نابليون الثالث لصالح الأهالي الجزائريين عن الكثير من الحقوق مقارنة بالمستوطنين الذي عانوا التهميش حسب زعمهما، وتزعم موقف الكنيسة لاسيما في الفترة ما بين 1867-1870 الكاردينال لافيجري رئيس أساقفة الجزائر المعين من طرف نابليون نفسه، وخلال عهد لافيجري حققت الكنيسة أهدافها التبشيرية التنصيرية واستطاعت إنجاز الكثير من المكتسبات كانت في وقت سابق عاجزة عن تحقيقها، ساعدها في ذلك الحرب الفرنسية البروسية، والمجاعة التي ضربت الجزائر سنة 1867. وكذا شخصية لافيجري المشبع بروح الصليبية القديمة والعداء للإسلام.

الكلمات المفتاحية: نابلون الثالث، الكاردينال لافيجري، المملكة العربية، المعارضة، التبشير الديني.

Abstract:

The following research paper talks about the French colonial policy in Algeria during the period of the rule of Napoleon III in the part related to the project of the Kingdom of Arabia called for by Napoleon, as well as the procedures and laws issued by him accordingly, from that law - Senatus Cansault - in 1863 AD, and its consequences for the French state And the colony of Algeria and the position of the Catholic Church opposing this project, which it considered a blatant concession by Napoleon III in favor of the Algerian people for many rights compared to the settlers who suffered marginalization, according to their claim. The same, and during the era of La Vigrei, the Church achieved its missionary missionary goals and was able to accomplish many gains that it was unable to achieve earlier, helped by the Franco-German war and the famine that struck Algeria in 1867. As well as the character of La Vigérie imbued with the spirit of the ancient Crusader and hostility to Islam.

Keywords: Napoleon III, Cardinal Lavigret, the Kingdom of Arabia, the opposition, the religious evangelization.

1– مقدمة:

انتخب لويس نابليون بونابرت المعروف بنابليون الثالث على رأس الجمهورية الفرنسية الثانية منذ شهر ديسمبر 1848 إلى سنة 1871م، وهي المرحلة التي لم يلبث أن تغير فيها النظام الجمهوري إلى حكم إمبراطوري، حيث أضحت فرنسا إمبراطورية يحكمها نابليون الثالث منذ سنة 1852م، تأسيا في ذلك بعمه نابليون بونابرت الأول، الذي حكم فرنسا مباشرة بعد الثورة الفرنسية سنة 1792م وهو تاريخ قيام الجمهورية الفرنسية الأولى التي صارت لاحقا مع نابليون الأول تحمل اسم الإمبراطورية الفرنسية الأولى سنة1804م.

وخلال فترة حكم نابليون الثالث التي ميزها الاستبداد والانفراد بالحكم والتعاطف مع سكان المستعمرات الأصليين لاسيما في الجزائر، شهدت أيضا هذه الفترة على الصعيد الدولي والمحلي (الجزائر) أوضاعا حساسة وظروفا خاصة، انعكست سلبا على الوضع الداخلي في فرنسا وعلى مستعمرة الجزائر، والتي ستعجل لاحقا في نهاية حكمه. من ذلك الحرب الفرنسية الألمانية، والهجرة الجماعية الكبيرة للأوروبيين من منطقتي الألزاس واللورين نحو فرنسا ونحو مستعمرة الجزائر، بالإضافة إلى المجاعة المميتة التي ضربت الجزائر سنة 1867م، والتي أهلكت الحرث والنسل. [1]

حاول نابوليون الثالث في خضم هذه الأوضاع استعطاف الفرنسيين المعارضين لاسيما رجال الدين الكاثوليك والمستوطنين في مستعمرة الجزائر، مع تقديم بعض التنازلات لهم، ومع ذلك لم تتراجع المعارضة عن مواقفها الرافضة لهذه السياسة، ولعل أشد المعارضين بعد المعمرين، كان الكاردينال لافيجري رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في الجزائر ؟ فمن هو الكاردينال لافيجري، ولماذا اختير ليكون على رأس الكنيسة الكاثوليكية في الجزائر خاصة وإفريقيا عامة، ليقود المشروع الاستعماري الصليبي؟ وكيف واجه سياسة نابوليون الثالث في الجزائر؟

2- مشروع المملكة العربية يؤجج الخلاف في فرنسا ومستعمرة الجزائر:

لعل أبرز القضايا التي عمقت الخلاف والتوتر بين الفرنسيين في كل من فرنسا ومستعمرة الجزائر مع الإمبراطور نابليون الثالث، هي سياسة الانحياز التي انتهجها تجاه سكان الجزائر الأصليين والتي عبر عنها نابليون صراحة بفكرة المملكة العربية في رسالة بعث بها إلى الحاكم العام المارشال بيليسيه (Le Maréchal pélissier) بتاريخ 06 فيفري 1863م، يقول فيها:" **إن الجزائر ليست مستعمرة بمعنى الكلمة ولكنها مملكة عربية وللأهالي مثل المستوطنين نفس الحقوق في الحصول على حمايتي وأنا إمبراطور العرب مثلما أنا إمبراطور الفرنسيين... إننا نطلب الآن إصلاح خاطر العرب وإمالة قلوبهم إلينا لأنهم جنس زينتهم العقل والهمة العليا والشجاعة والمهارة في بعض أمور الفلاحة...** [2]

هذا ولم يخف بليسيه الحاكم العام امتعاضه وخوفه أيضا من سياسة الإمبراطور نابليون الثالث الجديدة منذ البداية، وجوابه على إحدى رسائل الإمبراطور نابليون الثالث بتاريخ 25 نوفمبر1861، أبان عن موقفه منها:" **يجب أن يكون العربي المسلم الذراع ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن يكون رأس الاستيطان**". [3]

وفي محاولة منه لتقنين مشروعه السياسي الجديد، أصدر نابليون الثالث مباشرة بعد هذه الرسالة مرسومه الشهير "السناتوس كانسولت" في 22 أفريل 1863م الذي نص فيه على المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات، مع حفاظهم ورجوعهم إلى أحوالهم الشخصية وأحكام الشريعة الإسلامية. ليتبعه بعد ذلك بزيارة قام بها إلى الجزائر لاحقا بين 3 ماي إلى 7 جوان سنة 1865م، وهي الزيارة التي عمقت الفجوة بينه وبين المعمرين والفرنسيين بشكل عام في الجزائر وفرنسا أكثر فأكثر، وذلك عندما اعتبر الجزائر مملكة عربية ومستعمرة أوربية في خطاب ألقاه أمام السكان.[4] فتعالت الأصوات المنددة والمعارضة هنا وهناك من استحالة فصل

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السابع / العـدد الأول
(ذو القعدة 1444هـ/ جوان 2023م)، ص 09– 19

الجزائر عن فرنسا:" **ستكون الجزائر مملكة فرنسية وليس مملكة عربية، مستعمرة فرنسية وليس أوربية، حامية فرنسية وليس معسكرا فرنسيا.**" (5)

والحقيقة أنّ مشروع المملكة العربية الذي نادى إليه نابليون الثالث في رسالته إلى الحاكم العام المارشال بليسيه أو في خطابه أمام المعمرين والجزائريين معا، جاءت لتوطيد الاستعمار الفرنسي أكثر بالجزائر والاحتفاظ بالجزائر فرنسية إلى الأبد، كما أنها جاءت لتفتيت البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري وتسهيل عملية انتقال الملكية العقارية للجزائريين لاسيما الزراعية منها إلى المعمرين بقوة القانون. (6)

يؤكد التوجه الجديد للإدارة الاستعمارية في عهد نابليون الثالث أيضا مدى تشبثها بالمشروع الاستعماري الذي بدأته فرنسا في الجزائر منذ السنوات الأولى للاحتلال، ولم تكن فرنسا لتتخلى عن هذا المشروع مهما كلفها الأمر، رغم إدعائها الاستجابة لرغبات الأهالي – الجزائريين– فسياسة فرنسا بنيت منذ البداية على هدف محدد في الجزائر هي سياسة الاستئصال العرقي للجنس البشري الجزائري، من خلال القضاء على مقومات الشعب الجزائري وهويته العربية والإسلامية، وتحويله إلى بلد أوروبي مسيحي لفائدة المستوطنين. (7)

3– الكنيسة الكاثوليكية في صلب المشروع الاستعماري:

اتسم الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى لاحتلاله الجزائر بالروح الصليبية، وكانت سياسته الاستعمارية في الجزائر لا تخلو في جوهرها من هذه الروح، بل كانت هي من تحركه وهي من تغذيه، والأمثلة في هذا الموضوع لا يمكن حصرها، والمصادر التاريخية غنية بالشهادات وبالأحداث عن هذه الروح التي أبانت عن العداء الصريح للإسلام وللشعب الجزائري المسلم. فالإسلام عامل قوة في المجتمع الجزائري ومنه يتغذى وهو الركيزة التي ترتكز عليها مقوماته وهويته الدينية والوطنية، رغم تعدد لهجات الجزائريين واختلاف أجناسهم، وبالتالي فإن بقاء هذه القوة وهذه الركيزة يشكل عائقا حقيقيا أمام المشروع الاستعماري، لذلك فإن إضعافه والقضاء عليه نهائيا في الجزائر كان من أولويات المشروع الاستعماري الفرنسي،(8) والدور الكبير في هذا الموضوع تكفلت به الكنيسة الكاثوليكية. بيد أنّ عصر الكاردينال لافيجري رئيس أساقفة الجزائر منذ 1867م كان أعظم وأزهى عصور الكنيسة الكاثوليكية في الجزائر. ولعل في التصريح الآتي للجنرال "لامورسيير"، يعطينا فكرة واضحة عن هذا الدور، حين قال في اعتزاز بعد أن نجح في إخماد بعض الثورات الشعبية الجزائرية:" لقد رأيت الآباء يعملون لقد أحببتهم، فقد علموني أنه يوجد انتصار آخر فوق كل انتصار هو ذلك الذي ننتصر فيه أكثر من أي انتصار لقهر العالم."(9)

3–1 الكاردينال لافيجري ومشروع نابليون الثالث في الجزائر:

مثلت الحركة التنصيرية التي تزعمها الكاردينال لا فيجري البعد الحقيقي للروح الصليبية القديمة التي حملها الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، وكذا روح الاستدمار الحديث، ومثلت قمة التحالف الديني والسياسي بين الكنيسة الكاثوليكية ورجال السياسة والجيش الفرنسيين، لتجسيد مشروع السياسة الاستعمارية في استئصال هوية الشعب الجزائري وإفقاره وتجهيله، تمهيدا لتحليته بالنصرانية والقيم الغربية بتقديم المساعدات الاجتماعية والاقتصادية في طبق الإنجيل باسم المسيحية. (10)

3–1–1: نبذة عن حياة لافيجري:

ولد شارل مارسيل ألمان لافيجري في 31 أكتوبر 1825م بالقرب من "بايون"(11)، في جبال البرانس، كان شديد الفخر بنسبه وأصوله، فكان يردد ذلك بقوله:"نحن نشبه جبالنا، القمم الرائعة والوديان اللطيفة والقمم الثلجية والينابيع المحترقة والجيدة، كل هذا معنا وداخلنا..."(12)

نشأ لافيجري في أسرة برجوازية من أب يعمل مفتش لدى مصلحة الجمارك من أصل بايوني، وأمه ذات أصل بايوني أيضا. اهتمام عائلته بأمور الدين كان محدودا وضيقا، عكس لافيجري الذي أبان عن تعلقه بالمسيحية منذ الصغر، فلقد تعرف على الإنجيل وأخلاقياته من قبل راهبتين كانتا في خدمة والديه، علمتاه كيف يتلو الصلوات، كما مكنه التحاقه بمدرسة سانت ليون Saint Leon من تنمية فضوله وحبه للمسيحية ولوظيفة الراهب، فكثيرا ما كان يمثل دور القس مع زملائه في المدرسة، في المناسبات الدينية.[13] وحسب لافيجري فلقد كان في الثالثة عشر من عمره وبالتحديد سنة 1838 عندما توجه مع والده إلى الكنيسة بمسقط رأسه بايون وطلب من الأسقف أن ينظم إليها، وهذا ما يذكره أيضا المطران "لاكروا" ، أسقف بايون عندما التقى للمرة الأولى لافيجري، فقال له: "أريد أن أكون كاهن الريف ..." [14] وهنا نصحه القس"لاكروا" أن يكمل تعليمه بمعهد (لاروسو) أو المدرسة الاكليريكية الصغرى للدراسات الأسقفية أولا. وفي سنة 1840 رحل لافيجري إلى باريس أين التحق بالمدرسة الاكليريكية " سانت نيكولا" حيث تعرف على الأسقف "آبي دوبنلوب" الذي أثر فيه وفي بقية أقرانه ونمى لديه الروح الكهنوتية.

واصل لافيجري دراسته العليا بمدينة كارم في 12 جويلية 1850م لينال درجة الدكتوراه

ويلتحق بعدها بالسربون ويشارك في اختبارات كنيسة سانت جينيفيار Saint Géniviere وينال المرتبة الأولى التي مكنته من الحصول على مقعد في الكنيسة برتبة دكتور في علم اللاهوت.[15]

سافر إلى المشرق سنة 1860م أين ساهم في عمليات إغاثة وإنقاذ السوريين المسيحيين الذي تعرضوا للاضطهاد على يد الأتراك والدروز، حيث لقي أكثر من 50 ألف شخص حتفه هناك. وكان قبل هذا التاريخ قد ناشد رجال الدين الكاثوليك في فرنسا لإصلاح الوضع الكارثي في المشرق، ولم يتردد هو الآخر حين سنحت له الفرصة في السفر إلى السوريا والوقوف على حجم الكارثة التي لحقت بالمسحيين هناك، ولعلها اللحظة التي شعر فيها بضرورة بعث الحضارة المسيحية في المشرق. ولما عاد إلى باريس لقي الثناء والترحاب، واستقبل استقبال الأبطال.[16]

منذ عام 1852م كانت أسقفية الجزائر المسؤولة عن عمليات التبشير والتنصير تحت رئاسة الأسقف "بافي"، الذي كان يكن العداء الشديد للإسلام والمسلمين، وكثيرا ما كان يصف الإسلام:"أنه بلاهة الشعوب دون الله"، و"أنّ القرآن حماقة... ومُحَمَّد ما هو إلا منتحل للمسيح"، وفي أواخر سنة 1866م خلفه الكاردينال لافيجري، الذي اقترحه الجنرال ماك ماهون على نابليون الثالث.[17]

وقبل قدومه إلى الجزائر سنة 1867م آمن لافيجري بعدة أفكار كان يأمل في تجسيدها على أرض الواقع وهي:

– ضرورة تنصير العرب بالقوة.

– استئصال الإسلام من قلوب المسلمين الجزائريين، إذ يشجع في ذلك السياسة التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر منذ سنة 1830م.

– استدراج المسلمين للمسيحية بهدوء وروية وبمختلف السبل الممكنة.

هذا يمثل عهد لافيجري في الجزائر المرحلة الأخطر والأعنف في سياسة فرنسا الاستعمارية الدينية، فهي المرحلة الثالثة التي بلغ فيها التنصير ذروته، حتى لقب لافيجري بأبي التنصير في الجزائر وإفريقيا، وصنفته الكتابات التاريخية والدراسات الدينية المسيحية بالشخصية الأبرز طيلة القرن التاسع عشر.[18]

وعن المهمة الدينية التي كلف بها لافيجري في الجزائر، تذكر المصادر الفرنسية أن الإمبراطور نابليون الثالث كان شديد الرغبة في تعين رجل دين يشع حيوية وطاقة وحماسا دينيا، إذ يمكن له أن يلعب دورا مهما على رأس أسقفية الجزائر. ولما اقترح اسم لافيجري من طرف المارشال دي ماك ماهون على الإمبراطور رحب بذلك، وفي 12 يناير 1867م عينه رئيسا لأساقفة الجزائر العاصمة."[19]

دخل لافيجري مدينة الجزائر يوم الأربعاء 15 ماي 1867م، على متن الفرقاطة الحربية "كاتون" ليباشر مهامه كرئيس لأساقفة الجزائر، هذا اليوم الذي وصفته الكتابات الفرنسية باليوم المشع في تاريخ المسيحية بالجزائر:" كان يوما مشعا، الجزائر المدينة الإفريقية كانت جميلة بلا حدود في ذلك اليوم، جعلت نفسها تبتسم، تلقى قسيسها. كانت المدينة البيضاء ترتفع من الأرصفة إلى القصبة، بآلاف مساكنها ورسمت على سماء زرقاء كثيفة تضاريسها القباب، ومآذنها وسقوفها المنبسطة، ضوء أشقر مضاء بشكل رائع ومذهب بشكل جميل، هذا الإعداد الخيالي لذلك الحسن، أن الأسقف لافيجيري نقله بلا شك من خلال الجمال الخارق لهذا المشهد الذي لا ينسى،لم تستطع المدينة كبح دموعها." [20]

استقبل لافيجري بالميناء العسكري بمدينة الجزائر استقبال الفاتحين في حشد كبير من الساسة وقادة الجيش والرهبان والمستوطنين، ثم نقل مباشرة إلى الكاتدرائية ومنها إلى قصر رئيس الأساقفة في موكب مهيب. [21]

يقول لافيجري عن هذا التعيين: "لم أكن لأتركك أبدًا الأسقفية؛ لكن الأمر يتعلق بالذهاب إلى التبشير إذ لا يزال الناس وثنيين بالكامل تقريبًا... هذا فعلا لم يكن صوت الطبيعة الذي يناديني إلى هذا المنصب، عرفت أنه صوت الله وأنا أوافق من أجل حبه." [22]

وذكر لافيجري أيضا أن حاكم الجزائر عندما استدعاه إلى هذه المهمة قال له:" أنّ هذا المنصب هو أحد أهم ما يمكن أن يعهد إلى رجال الدين في فرنسا رغم الصعوبات الكبيرة، لكني أعرف غيرتك على الدين، وأنا مقتنع أن هذه الصعوبات لن تكون قادرة على تثبيط رجل في مثل شخصيتك."[23]

وبعد أربع وعشرين ساعة من تلقيه رسالة حاكم الجزائر وقبوله العرض رد لافيجري على المارشال ماك ماهون: "لم أكن لأفكر في ذلك لنفسي لأترك أبرشية أحبها بشدة، حيث احتفظت بالعديد من الأعمال، وإذا عرضت عليّ سعادتكم مقعد أكبر من مقعد "نانسي" ببلادي سيكون الجواب بالنفي بالتأكيد. ولكن أنا قبلت الأسقفية فقط كعمل من أجل التفاني والتضحية، أنت تقترح علي مهمة شاقة ومؤلمة، رؤية أسقفية بكل طريقة أدنى مني، وهو عزيز علي، تعتقد أنني أستطيع أن أفعل أشياء جيدة أكثر من أي أحد آخر –أسقف كاثوليكي– السيد مارشال، يمكن أن أجيب فقط على شيء واحد لمثل هذا الاقتراح: أنا أقبل التضحية المؤلمة." [24]

وقبل أن يغادر لافجري فرنسا من أجل المهمة الموكلة له كان يقول: "سأبقى ستة أشهر أشاهد، ستة أشهر للتفكير ثم سأعمل." [25]

كان لافيجري ساخطا على حال أسقفية الجزائر التي لم تحرك ساكنا من أجل خدمة المسيحية والتبشير، فمنذ تأسيسها بداية الاحتلال وبطلب من حكومة لويس فليب للبابا غريغوريوس السادس عشر، عين عليها الأب "دوبوش" أسقفا، ولم يعر الأخير اهتماما لفكرة التنصير بل امتثل للأوامر في عدم الاتصال مع المسلمين، وهو النهج الذي سار عليه خلفه القسيس " بافي" بالامتثال الصارم لتعليمات الحكومة الفرنسية وتجنب الاحتكاك بالمسلمين. غير أن عهد لافيجري كان مختلفا تماما عن سابقيه، فمنذ وصوله إلى الجزائر وهو يبحث عن طريقة تمكنه من القيام بعمليات التبشير والتنصير للمسلمين، مخالفا بذلك تعليمات وتوجيهات الحاكم العام المارشال ماك ماهون وأوامر الإمبراطور نفسه الذي كان يحلم بالمملكة العربية. [26]

ولعل الرؤية التي كانت عند لافيجري في مخالفة أوامر الدولة الفرنسية في مسألة التبشيير والاحتكاك بالمسلمين، على ما ذكرته المصادر، مردها أن الدولة كانت قد طلبت من رجال الدين والأساقفة في الجزائر بأن يتركوا الأهالي "مركونة إلى مصاحفهم"، بدون أن تهتم بأرواحهم، ثم أنّ مدة أربعين سنة في الدوائر الرسمية الفرنسية في الجزائر وفرنسا — يقول لافيجري– بدت فكرة التبشير والتنصير غير متوافقة مع التسامح، "وهذا في حد ذاته يعتبر وصمة عار على الأمة الفرنسية." بل لقد أسهمت هذه الرؤية للدولة الفرنسية ولحكومة

الجزائر العسكرية في تمكين الخوف والشك حتى لدى الجنود الفرنسيين في الجزائر، وقد تساءل لافيجري: ما الذي استحوذ عليهم؟ وهو يعتقد – أي لافيجري- أن هذا الخوف من التبشير والتنصير هو عدم إقحام الدولة الفرنسية نفسها في المتاعب مع السكان، فإن ذلك في نظرها لا يجلب إلا الصراعات الدموية مع المسلمين، ولعل فكرة المملكة العربية التي نادى إليها نابليون الثالث كانت أكثر وضوحا في هذه المسألة.[27] ثم إن لافيجري عند قدومه إلى الجزائر – حسب زعمه- وجد مجتمعا مقيدا بالرأسمالية والاستعمار الحر المحدود بموارد خاصة، مقسم إلى مجموعات صغيرة من المستوطنين، حيث توقفت المبادئ الإدارية الجديدة للدولة الفرنسية عن تشجيع الهجرة، ولم تعد تمنح الأراضي.[28]

لكن سرعان ما تطورت العلاقة بين الكاردينال لافيجري والحاكم العام للجزائر ماك ماهون وكذا الإمبراطور نابليون الثالث للأسوء، خاصة وأن الكردنال صار جزء من المعارضة لسياسة نابليون في الجزائر، بل أحد أبرز قادتها، فقد حظي بشعبية كبيرة في كامل أنحاء الجزائر وفي فرنسا من طرف المعارضين والرافضين لفكرة المملكة العربية، فهتف له الناس واحتفلت الصحف الفرنسية المعارضة بمدحه دون تردد أو قيود. وسار جميع أساقفة فرنسا على نهجه، كما أشاد البابا بشجاعته ونضاله وهنأه بذلك واعترف له أنه يمثل عصرا جديدا للمسيحية في الجزائر وقد ضمن لها مستقبلا أفضل.[29] لاسيما وأنّ لافيجري لم يكن ليتردد عن مقولته:"لا بد من إنقاذ الشعب، ينبغي علينا الكف عن تركه وسط قرآنه بواسطة خلق مملكة عربية مزعومة، لا بد أن تعطيه فرنسا الإنجيل وذلك بدمجه في حياتنا، أو طرده في الصحراء بعيدا عن العالم المتمدن." [30] وهو الأمر الذي دفع الحاكم العام ماك ماهون لنعته بالمتمرد في خطاب عنيف وجهه للافيجري رئيس أساقفة الجزائر، حيث وبخه بشدة وبمرارة، لأنه انحاز إلى المعارضة وحشد في صفه المعارضين لسياسة الإمبراطور وحرضهم على الكراهية ضده. وهكذا: "أصبح اسم الأسقف علمًا لكل من كان معاديًا للحكومة."[31]

4– موقف الإمبراطور والحاكم العام من سياسة ومشاريع التبشير للكاردنال لافيجري :

اشتغل رجال الدين المسحيين من قساوسة ورهبان جنبا إلى جنب مع عناصر جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر وساسته في تنشيط المشروع الاستدماري في الجزائر، حتى أن بعضهم استقدم من أوروبا خصيصا لهذا الغرض، وتوزعوا على المناطق التي لقي فيها الاحتلال الفرنسي مقاومة شرسة من طرف الجزائريين، لاسيما منطقة القبائل والصحراء، ولاستعطافهم واستمالتهم والتأثير في نفسيتهم، استعملوا طرقا تمويهية حتى لا يثيروا الشبهات حولهم، من ذلك ارتدائهم للبرنوس الأبيض الذي لازمهم طيلة مهامهم التنصيرية بالجزائر حتى لقبوا بالآباء البيض. [32]

وبالحديث عن منطقة القبائل، فلقد أرسل لافيجري للإمبراطور نابليون الثالث مذكرة جاء فيها: "رئيس أساقفة الجزائر لديه الرغبة في تأسيس مشاريع تبشيرية في منطقة القبائل بين السكان القدامى الأصليين، المستقرون في الجزائر الذين كانوا مسيحيين لقرون عديدة." وعندما رفض نابليون الثالث فكرة تنصيرهم من أساسها، واجه لافيجري هذا الرفض بقوله:" إن البربر في هذا البلد ليسوا كالعرب، وليسوا مُحَمَّديين- أي مسلمين- في الأصل، إنهم ينحدرون من نسل السكان المسحيين للقرون الأولى للمسيحية في هذا البلد، وقد عانوا من نير الإسلام، كما أنهم حافظوا على علامة الصليب، كما أنّ وضعهم الاجتماعي أقرب إلينا منه إلى العرب." [33]

منذ سنة 1868 أقدم الاستعمار وبمباركة من الكنيسة الكاثوليكية على إنشاء المدارس المسيحية التي تتسم بالروح الصليبية في عدائها للشعب الجزائري المسلم، التي لا تخلو من الطابع التبشيري المسيحي، هذه المدارس التي كان يسيرها رهبان وقساوسة فتحت أبوابها للتلاميذ المسلمين في مناطق عدة من البلاد الجزائرية وحلت محل مدارس التعليم الرسمية.[34]

فمنطقة القبائل التي عرفت في الفترة الممتدة بين 1838 إلى 1864م قرابة خمسة عشر حملة عسكرية، آخرها كان بقيادة الجنرال "راندون" صيف 1857م، رافقه فيها كل من الأسقف "بافي" والأب "سوشي" للتبرك بهما.[35] عرفت أيضا بناء قرابة 21 مدرسة يسيرها الآباء البيض ويدرس فيها حوالي 1039 تلميذ، والأمر نفسه ينطبق على منطقة الأبيض سيدي الشيخ وورقلة...[36]

جدير بالذكر أن لافيجري عندما اقترح فكرة إنشاء مؤسسات تعليمية واستشفائية تقوم بمهمة التبشير والتنصير التي يشرف عليها الراهبات والرهبان بمساعدة القساوسة في الجزائر وفي الصحراء، حاول عدم الخروج عن تعليمات نابليون الثالث، لعله يريد بعض الدعم من وراء ذلك، لكنه لم يخف امتعاضه وغضبه عندما قوبل طلبه بالرفض:"رئس الأساقفة لا يطلب أي إعانة لهذه المؤسسات وسوف يعتني بها وبأعمال الصيانة، إنه يشعر أنها يمكن أن تكون مفيدة للغاية لتقريب السكان الأصليين إلينا، كما أنهم سيحصلون على فوائد منها. فهو –أي لافيجري– لا يريد أن يفعل أي شيء في هذا الصدد دون تعليمات من جلالة الملك وإعلام إرادته."[37]

هذا وقد تزامنت فكرة إنشاء المؤسسات الدينية التعليمية والخيرية التي اقترحها الكاردينال لافيجري، مع المجاعة التي ضربت الجزائر بين 1867 و1868م وأهلكت أكثر من 200 ألف جزائري من مختلف الأعمار. وطيلة تواجده بالجزائر، عمل لافيجري على جمع اليتامى وتمسيحهم، وكانت فترة المجاعة فرصة مواتية لتحقيق هذا الهدف وضرب سياسة نابليون.[38]

وجد لافيجري في المجاعة فرصة سانحة ليتهم الحاكم العام ماك ماهون أيضا بإخفاء حجم الكارثة التي ترتبت عن المجاعة وفظاعة المشاهد المروعة التي حلت بالمستوطنين أولا والجزائريين الأهالي، فقد تزامن مع المجاعة، الأوبئة المميتة من كوليرا و(تيفيس) وغزو الجراد، فالبؤس كان فضيعا ومشهد الجثث التي بقيت لأيام على حواف الطرقات كان مروعا، ومن شدة قساوة الوضع أكل النساء والأطفال العشب مثل القطعان، بل أكل بعضهم لحوم البعض. جاء هذا الوصف في صرخة استغاثة وإنذار أطلقها الكاردنال لافيجري لم تسمع في فرنسا فقط، ولكن في جميع البلدان الكاثوليكية وقال عندها:"الجزائريين التعساء يستسلمون تحت أفظع الآفات، الكوليرا، الوباء والمجاعة مجتمعان، أشفق على الكثير، البؤس ساعدني."[39]

وليحقق أهدافه التنصيرية عمل لافيجري على إنشائه لجنة للإغاثة، ترصد المساعدات المالية للأيتام، ورأى: " أنه سيضطر لإيجاد200000 فرنك كل عام لرعاية هؤلاء الأطفال، حتى ولو اضطر لتغطيتها بنفسه، والذهاب للتسول في أمريكا الشمالية والجنوبية، ولاشيء يمكن أن يبعده عن عمله." وعليه قامت الجمعيات الخيرية بتقديم المساعدات للجنة الإغاثة ودور الأيتام وصوتت الحكومة الفرنسية لهذا الغرض بأربعمائة فرنك رغم أنه مبلغ غير كاف للأرامل والأطفال المهجرين.[40]

كما أنشأ لافيجري مدينتين جديدتين غرب مدينة الجزائر بالقرب من مدينة الشلف هما:" سان سبريان وسانت مونيك" لاستيعاب واستقبال المسلمين وأبنائهم الأيتام وإنقاذهم من المجاعة، ولعل هذه الخدمات هي المصيدة التي أوقعت الكثير من الجزائريين أيام المجاعة ودفعتهم لاعتناق المسيحية.[41] إذا هي فرصة مناسبة لاستيعاب السكان الأصليين حسب زعمه، رغم أنه ذهب مباشرة ضد أفكار الإمبراطور نابليون الثالث.[42]

هذا الأخير عندما عجز في ثنيه عن سياسة التبشير، خاطبه قائلا:" احتفظ بالمسيحية بين مائتي ألف كاثوليكي يعيشون في الجزائر ودع المسلمين يعيشون وشأنهم".[43]

رضخ نابليون في نهاية المطاف لسياسة الكاردينال لافيجري الذي حصل منه على وعد حازم بمواصلة العمل بدور الأيتام. وفي 28 ماي 1868م نقل المارشال "نيل" نائب وزير الحربية رسالة إلى كاردينال من الحكومة الفرنسية قال له فيها بكل صراحة:"صدق سيدي، إن الحكومة لا تنوي أبدا تقييدك حقوق الأسقف." من جهته راح الحاكم العام ماك ماهون يناشد لافيجري ويتوسل إليه بإعادة الأيتام

إلى ذويهم وقبائلهم، فهم قادرون على إطعامهم، لاسيما مع نهاية المجاعة. وعندها رد عليه لافيجري الذي كان في مركز قوة وشعبيته كانت تزداد يوما بعد يوم:" كان من الأفضل أن نتركهم يموتون ألف مرة...لكن أنا الأب الحامي لكل هؤلاء... إنهم ينتمون إلي، ولأن الحياة التي ما زالت تدفعهم هي أنا." (44)

وأما المستوطنون وعلى الرغم من معارضتهم لسياسة نابليون الثالث في الجزائر واستعمالهم كل الوسائل والسبل للضغط عليه داخل الجزائر وخارجها من خلال تقديم مصالحهم الشخصية على مصلحة فرنسا. (45) فقد عارضوا كذلك سياسة لافيجري التنصيرية وفكرة بناء دور الأيتام والقرى المسيحية للعرب المنصرون من يتامى الحروب والمآسي، وذلك خوفا على مستقبلهم من المنافسين الجدد، وقد قاطع هؤلاء المعمرون العرب المنصرون عندما أصبح منهم الرهبان والقساوسة وخاطبوهم بلغة التعالي والتمييز أنهم من الأهالي ولا حقوق لهم في الجزائر، على الرغم من أنهم صاروا مسيحيين. (46)

وإذا كان الحاكم العام ماك ماهون عارض مشاريع التبشيرية للكاردينال لافيجري، فمن جهته هو الآخر، لم يخف الكاردنال لافيجري معارضته لفكرة المدارس المختلطة التي اعتزم الحاكم العام ماك ماهون إنشاءها لصالح أطفال العرب والأوروبيين معا، مما سيحظر عليهم التعليم الديني – حسب لافيجري- وحذر الحاكم العام لافيجري بقوله:" إذا كان تنظيم المدارس بهذه الطريقة يزعجه– أي لافيجري- سيجد الحاكم العام نفسه ملزما بمنع الأطفال الكاثوليك من ارتيادها، لكونها مخالفة للقانون ولروح الكنيسة. (47)

عموما فإن فكرة إنشاء المدارس الفرنسية في الجزائر لم يكن الغرض منها بناء العقول ومحاربة الأمية والجهل بين الأهالي الجزائريين بقدر ما كانت محاولة لاستيعابهم ودمجهم في المشروع الاستعماري وفي هذا علق أحد الكنسيين قائلا:" ليس الغرض من فتح المدارس في شمال إفريقيا أن نكوّن عقولا مثل مونتيسكيو أو جون جاك روسو أو فولتير لكن لنبدل لغة بلغة ودينا بدين وعادات بعادات"، ضمن ما يعرف "بسياسة البديل". (48)

خلص الأستاذ شاوش حباسي في معرض حديثه عن السياسة التي انتهجها نابليون الثالث أو حتى الحاكم العام ماك ماهون تجاه الكاردينال لافيجري خاصة وسياسة التبشير والمبشرين عامة أنها سياسة متناقضة بين التشدد تارة والتسامح تارة أخرى، على الرغم من تأويل بعض الكتّاب مثل إيمريت سوء التفاهم بين السلطة الفرنسية في فرنسا وفي الجزائر مع رجال الدين المسحيين وعلى رأسهم الكاردنال لافيجري إلى صراع بين الطرفين. وفي وصفه لسياسة نابوليون الدينية، أفاد تقرير عثماني أنها اتسمت بالارتجالية وبالتناقض في كثير من الأحيان، لا يخضع لأي مبدأ واضح ولا تبرره أية قاعدة سياسية، ثم يضيف التقرير أن الإمبراطورة زوجة نابليون الثالث كانت متدينة ومتحمسة لنشاط المبشرين ومعينة لهم، وهي من كانت تؤثر على نابليون الثالث في هذا الجانب، ولم يذكر التقرير أن صراعا كان قائما بين نابليون الثالث ورجال الدين المسحيين في الجزائر. غير أن الأستاذ حباسي يراه خلافا تكتيكيا لا جوهريا بين الإمبراطور نابليون الثالث وماك ماهون الحاكم العام للجزائر ورجال الدين المسحيين. لأن الظرف لم يكن يسمح لفرنسا أن تشجع التبشير بالدين المسيحي وسط الأهالي في وقت كانت فيه المقاومة الجزائرية المسلحة مستمرة، فخشي الإمبراطور وماك ماهون أن يزيد المبشرون في تعقيد الوضع العسكري في الجزائر. (49)

الخاتمة:

مما سبق نستخلص أن الجزائريين عانوا من السياسة الاستعمارية الفرنسية قبل وخلال عهد نابليون الثالث، ولئن تميزت الفترة التي سبقت عهد الأخير بالعنف والقسوة بشخصياتها الاستعمارية من ساسة وقادة عسكريين، ورجال دين، وكذا القوانين الجائرة والوسائل المستعملة لتمكين الاستيطان الأوروبي بالجزائر، فإن السياسة الاستعمارية في عهد نابليون الثالث اتسمت بالدهاء السياسي بين الليونة والمهادنة تجاه الأهالي في محاولة لاستيعاب الجزائريين دون مقاومة منهم ودمجهم في المشروع الاستعماري الذي بدأته فرنسا منذ احتلالها للجزائر سنة 1830، وما مشروع المملكة العربية الذي نادى إليه نابليون إلا خطوة من خطوات الاستيعاب هذه، ولإنجاح هذا المشروع– المملكة العربية– في الجزائر، بحث نابليون عن شخصيات فرنسية تكون لها القدرة على التكيف مع الوضع السياسي الجديد الذي فرضه نابليون على الدولة الفرنسية ومستعمرة الجزائر، ويعد الكاردنال لافيجري رئيس أساقفة الجزائر وممثل الكنيسة الكاثوليكية فيها وقائد حملات التنصير الصليبية بها، أبرز هذه الشخصيات التي اختارها نابليون الثالث للمهمة الأكثر خطورة في هذا المشروع– التنصير– ، هذا وقد نجح لافيجري في تحقيق أهداف السياسة الاستعمارية الفرنسية على الصعيد الديني من خلال عمليات التبشير المسيحي للكثير من جزائريين. ساعده في ذلك ظروف المجاعة التي حلت بالجزائر سنة 1867م وأفنت عددا كبيرا منهم، وكذا الظروف الدولية التي عاشتها فرنسا، لاسيما الحرب الفرنسية الألمانية التي وضعت مصير نابليون الثالث وعرشه على المحك، وهنا ظهرت أسباب معارضة نابليون لأعمال لافيجري التبشيرية والأساليب المستعملة فيها من جهة، ثم إن فرنسا كانت في حاجة إلى هدوء واستقرار نسبي في مستعمرة الجزائر أيضا، لكبح شرارة المقاومة الشعبية التي كانت في أوج قوتها من جهة ثانية. غير أن الحماس المفرط للكاردينال لافيجري، المفعم بالروح الصليبية القديمة وكرهه للعرب والإسلام، وكل ماله صلة بهم لاسيما فكرة المملكة العربية، التي اعتبرها تمكينا للجزائريين على حساب المعمرين ومبادئ فرنسا الكاثوليكية، جعلته لا يصغي لأوامر الإمبراطور نابليون الثالث ولا إلى ماك ماهون الحاكم العام بالجزائر، فاعتبر ذلك تمردا حقيقيا على قرارات السلطة الفرنسية الحاكمة، لكنه من جهة ثانية أكسب الكاردينال لافيجري قوة وشعبية في الجزائر وفرنسا، ووضعت السلطة الفرنسية الحاكمة أمام أمر الواقع. وفي كل الأحوال حققت فرنسا أهداف حملتها الاستعمارية الصليبية في الجزائر على عهد لافيجري، الشخصية الأكثر تأثيرا والأبرز خلال القرن 19م في المشهد الديني المسيحي الكاثوليكي.

الهوامش:

---

(1) علي مُحَمَّد مُحَمَّد الصلابي، **كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الأمير عبد القادر، تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى**، د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص654.

(2) مجاود مُحَمَّد، يحياوي فريال، " تداعيات تطبيق قانون السيناتوس – كونسلت العقاري 22 أفريل 1863 على منطقة الجلفة،" **المجلة المغاربية للدراسات التاريخية**، المجلد 13– العدد2، جامعة سيدي بلعباس، ديسمبر 2022، ص141–142.

(3) نور الدين إيلال، "المرسوم المشيخي 22 أفريل 1863 في الجزائر والمواقف المختلفة منه"، **مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 08، العدد، 2، جامعة الوادي، ديسمبر 2017، ص212.

(4) الصلابي، **المرجع السابق**، ص655.

(5) إيلال، **المرجع السابق**، ص214.

(6) مصطفى عبيد، "دراسة في رسالة الإمبراطور نابليون الثالث إلى المارشال بليسيي،" بتاريخ 06 فيفري 1863"، المصادر، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية والثورة التحريرية 1954، جوان 2012 ، ص 245-246.

(7) حمودي إبرير، "الهوية الوطنية الجزائرية في السياسة الاستعمارية الفرنسية في عهد نابليون الثالث 1852- 1870م،" **مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 06، العدد 01، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، جوان 2021، ص 60.

(8) ليليا بن صويلح،" الأبعاد السوسيو – ثقافية للمشروع الاستعماري في الجزائر،" **المعيار**، المجلد 5، العدد 10، جامعة العلوم الإسلامية، الأمير عبد القادر، قسنطينة، ماي 2005، ص 364.

(9) بن شيخ حكيم، " المشروع التنصيري للكاردينال لافيجري من خلال كتاب : بول ريمبو الوجوه البارزة لمئوية احتلال الجزائر 1830-1930م"، **مجلة الدراسات والأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة زيان عاشور ، الجلفة، المجلد10، العدد 4، ديسمبر 2018م، ص113.

(10) صالح نعمان، "التأثيرات المعاصرة للمشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر – حركة التنصير الأسباب والعلاج"، **المعيار**، المجلد 5، العدد 10، جامعة العلوم الإسلامية، الأمير عبد القادر، قسنطينة، ماي 2005، ص 538.

(11) طيطوش حدة، "الكاردينال لافيجري وأبعاد مهمته التبشيرية في الجزائر 1867-1880م"، **مدارات تاريخية**، مركز المدار المعرفي للأبحاث، جامعة حامة لخشر، الوادي، المجلد الأول العدد الثالث، سبتمبر 2019م، ص 521.

(12)Le Vicomte de Colleville, Ludovic de (1855-1918). **Les Grandes hommes de l'église au XIX^{E} Siècle . Le cardinal Lavigerie** ; 2eme edition ; librairie des Saints pères ; Paris, 1905 ; Source gallica.bnf.fr / Institut catholique de Paris ; p 11

(13) طيطوش، **المرجع السابق**، ص 521.

(14)Goyau, Georges (1869-1939) ; Le cardinal Lavigerie : un grand missionnaire ; librairie Plon ; Paris, 1925 ; Source gallica.bnf.fr / Institut catholique de Paris ; p :42.

(15)طيطوش، **المرجع السابق**، ص 522.

(16) طيطوش، **المرجع السابق**، ص 522

(17) إبرير، **المرجع السابق**، ص 65.

(18) بن شيخ، **المرجع السابق**، ص114.

(19) **Colleville**, p :60

(20) **Op ; cite** ; p :62

(21) طيطوش، **المرجع السابق**، ص 526.

(22) **Colleville**, p 61

(23) **Goyau**, p 66

(24) **Op ; cite** ; p :66

(25) **Colleville**, p 61

(26) **Op ; cite** ; p 62

(27) **Goyau**, p 37

(28) **Op ; cite** ; p 37

(29) **Colleville**, p 71-80

(30)الصلابي، **المرجع السابق**، ص 656.

(31) **Colleville**, p 73

(32) نعمان، **المرجع السابق**، ص 539.

(33) **Colleville**, p 69

(34) خديجة بن فليس، "التأثيرات التربوية والتعليمية للمشروع الثقافي الاستعماري – نموذج الإنسان في برامج التربية والتعليم"، **المعيار**، المجلد 5، العدد 10، جامعة العلوم الإسلامية، الأمير عبد القادر، قسنطينة، ماي 2005، ص 349.

(35) بن شيخ حكيم، **المرجع السابق**، ص113.

(36) بن فليس، **المرجع السابق**، ص 349.

(37) **Colleville**, p :71

(38) الصلابي، **المرجع السابق**، ص 656.

(39) **Colleville**, p 75-76

(40) طيطوش ، **المرجع السابق**، ص 529.

(41) بن شيخ ، **المرجع السابق**،، ص115.

(42) **Colleville**, p 78

(43) الصلابي، **المرجع السابق**، ص 656.

(44) **Colleville**, p 79-81

(45) الصلابي، **المرجع السابق**، ص657.

(46) عبد القادر خليفي، "سياسة التنصير في الجزائر"، **المصادر**، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية والثورة التحريرية 1954، ع9، جوان، 2004، ص 14.

(47) **Colleville**, p 73

(48) بن صويلح، **المرجع السابق**، ص 364.

(49) شاوش حباسي، **من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830–1962**، دار هومة، الجزائر، 1998، ص 29– 30